المبحث الثالث

المذهب التلفيقي

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة المذهب التلفيقي.

المطلب الثاني: أبرز رواد المذهب التلفيقي.

المطلب الثالث: فلسفة التربية الحديثة في المذهب التلفيقي.

المطلب الرابع: نقد المذهب التلفيقي.

المطلب الأول

حقيقة المذهب التلفيقي

يراد بالمذهب التلفيقي: المذهب القائم على وجود انفصام بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية عند الإنسان، وعلى وجود صراع بين الفرد والمجتمع، فيلفِّق مذهباً لا فردياً ولا جماعياً، وإنما مذهباً نفعياً قائماً على استغلال تبادل العلاقة بينهما إلى أقصى حد.

يرى أصحاب المذهب التلفيقي أن أساس الخطأ عند المذهب الفردي وعند المذهب الجماعي هو الفصل بين الفرد والمجتمع، ووضع مصلحة كل واحد منهما ضد

مصلحة الآخر، وأن أياً منهما لا يحقق وجوده إلا بالتغلب على الآخر، فهم يوافقونهم على وجود الانفصام لكن يخالفونهم في طريقة العلاج، فالمعالجة عندهم تكون على وفق ما يحقق المصلحة والمنفعة للجميع[١].

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية (٤٦٩).

المطلب الثاني

أبرز روّاد المذهب التلفيقي

يمثل المذهب التلفيقي ـ كما أحب تسميته بهذا الاسم ـ الفلسفة الشخصانية، وقد أشرنا إليها في بداية البحث، وهي الفلسفة التي تحاول التلفيق بين الفردانية والجماعية، وذلك بالدعوة إلى الفردية، وإلى القول بأن الحقيقة شخصية، وأن الفرد هو صانع القيم والأخلاق، وأن الفرد لا بد أن يرفض كل أشكال العبودية التي يفرضها المجتمع أو الدولة، وفي الوقت ذاته يدعون الفرد إلى الاتصال بالآخرين، والانفتاح عليهم، وذلك عن

طريق الحقائق الفردية المشتركة، والتي تمثل الوعي الجماعي، والذي لا بد من الخضوع له، وهنا دعوة إلى الجماعية[١].

لذا فإن الفلسفة الشخصانية ترى أصدق معبر عنها هو النظام الديمقراطي، ففيه ـ في رأيهم ـ تتحقق الفردية والجماعية معاً، إذ تتاح للأفراد حرية المنافسة وحرية الارتقاء، وفيها يمكن تحقيق الفرد لذاته بالاتصال والانفتاح على الآخرين[٢].

ومن أبرز الدعاة للفلسفة الشخصانية: رينوفييه الفرنسي، وهو مؤسسها في فرنسا، وبروبيائيف الروسي، كما يذكر د. الكحلاني في كتابه الفردانية[٣].

ويعتبر جون ديوي من أبرز دعاة هذا المذهب أيضاً[٤]، فديوي يعتقد بوجود تأثير كبير للبيئة والمجتمع في أفكار الناس ومعتقداتهم وميولهم[٥]، ويرى في الوقت

---

(١) انظر: الفردانية (٣٧١ ـ ٣٧٣).
(٢) انظر: المصدر السابق (٣٧٦).
(٣) انظر: (٣٧١، ٣٧٢).
(٤) انظر ترجمته في: دراسات في الفلسفة المعاصرة د. زكريا إبراهيم (٥٨ ـ ٦٥).
(٥) انظر: المصدر السابق (٥٩).

ذاته أن للفرد قدرة كبيرة في تغيير نظم المجتمع بما يوافق مصلحته. فمذهب ديوي كما هو معروف قائم على النفعية، وقد يسمى بالذرائعية، وهو محارب لكل شيء من شأنه أن يقف أمام الحرية الشخصية، أو يضع العقبات في سبيل التطور الاجتماعي، فهو يشجع كل مسعى يراد به تنظيم الهيئة الاجتماعية من جديد[١].

(١) انظر: فلسفة المحدثين والمعاصرين، أ. وولف، ترجمة: أبو العلا العفيفي (١١٠).

المطلب الثالث

فلسفة التربية الحديثة في المذهب التلفيقي

يرى ديوي أن الفلسفة بإمكانها معالجة انفصام العلاقة بين الفرد والمجتمع. وأن وظيفة التربية تقوم على استغلال تبادل العلاقة بينهما إلى أقصى حد.

ويرى أن الوسيلة لتحقيق هذا الهدف هو الذكاء الإنساني، المتضمن لقوة الملاحظة التي تمكن الفرد من تحديد المشكلات وتحليلها وتقييمها ثم حلها.

فيرى أنّه بالذكاء يمكن للفرد إعادة تقييم المهارات

والعادات والتقاليد الاجتماعية، وتقرير النافع منها.

ويقرر بأن العقل لا ينمو من خلال فرد يطيع المجموع طاعة عمياء، ولا من خلال مجتمع يصب الأفراد في قوالب محددة من السلوك، وإنما ينمو من خلال الحوار وحرية الرأي التي تؤدي إلى إيجاد العقل الاجتماعي.

ويريد ديوي بالعقل الاجتماعي: المؤسسات الاجتماعية التي تفكر بمصلحة الجميع، وتحسين نوعية الفرد.

إذن فديوي يرى أن التربية واجب عليها أن لا تقيد الفرد أثناء تعليمه بقيود، بل توفر له الفرصة للتدرب على حل المشكلات، وتعطيه الفرصة ليتعلم بنفسه، ويتفهم آراء الآخرين، ومن هؤلاء الناضجين تتكون المؤسسات الاجتماعية والتي من شأنها أن تضع القرارات والقيود، وتشكل القيم التي توضع بعد ذلك ضوابط للأفراد[١].

---

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية (٤٦٩، ٤٧٠).

المطلب الرابع

نقد المذهب التلفيقي[1]

١ ـ يقوم المذهب التلفيقي على اعتقاد انفصام العلاقة بين النزعتين الفردية والجماعية عند الإنسان، وهذا خطأ أيضاً، فكما تقدم أن لكل نزعة دور مهم تقوم به في حياة الإنسان، وأن إعمال كل منهما في مجاله يؤدي لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

٢ ـ يعتبر هذا المذهب متناقض مع نفسه، ففي

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية (٤٦٧ ـ ٤٨٠).

الوقت الذي ينادي بوضع أهداف تربوية متمركزة حول إعداد الفرد، وجعل التلميذ سيِّد نفسه، يضع أهدافاً متمركزة حول المصالح الاقتصادية، ويطالب بتربية الطالب على الخضوع والانقياد لمتطلبات العمل في المؤسسات الصناعية.

فهو في الوقت الذي يدعو فيه إلى توسيع المعلومات لإعداد الفرد، يطالب بإعطاء الطالب معلومات محددة تعده للوظيفة المناسبة، وفي الوقت الذي يدعو فيه تربية الطالب على التأمل والتفكر، يربيه على الخضوع والإذعان للسلطة ولأصحاب العمل. وفي الوقت الذي يدرب فيه الطالب بأن يخطط مستقبله باستقلال ووعي، يدربونه على كيفية تقبل أي وظيفة تسند إليه.

ولذلك فقد احتار المربون الأمريكيون في هذه المشكلة، فمنهم من مال إلى أسلوب النعامة أي: دفن الرؤوس في الرمال، وتجاهل هذا التناقض، ومنهم من يرى بأن الحل لذلك بانفصال أهداف التربية، فأهداف تربية الفرد منفصلة عن أهداف المجتمع الصناعي.

٣ ـ ينتهي مذهب جون ديوي إلى خدمة المذهب الاقتصادي الرأسمالي فهو في حقيقته تربية ترويضية للناشئة على تقبل النظام الاقتصادي القائم، وتنفيذ سياساته،

والدفاع عنه، معدم الانتباه لنقائصه، لأنه صادر عن العقل الاجتماعي، فهو صادر عن حرية الفرد، ولذلك تؤخذ المناهج والنظريات التي تدرس للطلاب عن طريق أصحاب العمل.

٤ ـ يعترف أصحاب المذهب الشخصاني ـ التلفيقي ـ بأن ما ذكروه من توفيق بين الفردية والجماعية ليس صحيحاً، بل هو صورة جديدة من صور تقييد حرية الأفراد وقتل الإبداع في نفوسهم، وتعبيدهم لما هو زائف من مبادئ مشتركة، تكوَّنت على أساس خاطئ.

يقول د. الكحلاني مصوراً مقدار ما يشعرون به من صراع قاتل بين الفردية والجماعية في نفوسهم: «فالإنسان يشعر بالعزلة والغربة حينما يكون بعيداً عن الآخرين، فيشعر أنه وحيد ومنبوذ من قبلهم فيشتد شوقه إلى الآخر، ويحاول الاتصال به عبر الصداقة أو الحب أو الزمالة أو العمل المشترك أو من خلال الارتباط مع الآخرين في الانتماء المشترك لأيدولوجية معينة أو لحزب واحد أو لهوية واحدة. . إلخ، ولكن ما إن ينخرط هذا الفرد مع الآخرين حتى يشعر بعزلة قاتلة، وبغربة أشد وطأة من الغربة الاولى، فيشعر بالعزلة حين يكون منفرداً ويشعر بوطأتها أيضاً حين يعيش مع الآخرين.

وهكذا يعيش الإنسان في حالة من التمزق النفسي بين الانفصال والإتصال، بين التمرد والتوحد، ويظل الإنسان كحبل مشدود بين أناة وذاته وخصوصياته من جهة، وبين الذوات الأخرى، من جهة أخرى، فللفرد سمات خاصة به وله أهداف وغايات محددة، ويتسم بالتفرد حين يعيش منفرداً ويشعر بقيمته وحريته، ويمتلك قوى وطاقات، ولكنه حين يود إخراجها إلى الواقع عليه أن يرتبط بالآخرين؛ ليظهر تفرده وطاقته تلك، غير أنه ما إن ينخرط في الآخرين حتى يضطر لارتداء قناع يحمي به ذاته من المجتمع، فيخفي معظم ما يتصف به من خصوصيات وأفكار ويلجأ لأن يسلك كما يريد الآخرون لا كما يريد هو، وهنا يفقد حريته وذاته ويتشكل وعي جديد حين يجتمع الأفراد يسمى بالوعي الجمعي، وهذا الوعي هو وعي زائف لأن الأفراد في هذه الحالة يتخلون عن معظم أهدافهم وأفكارهم فتظهر أهداف جديدة وأفكار جديدة تمثل ما هو مشترك بين الأفراد»[١].

(١) الفردانية (٣٧٨، ٣٧٩).